جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ
السنة الثالثة

مقرر تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر
(المحاضرة السادسة)
أ.د. أحمد الخضر– د. محمد الحجي

الحركات الوطنية في إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى(١)

مرت الحركات الوطنية في إفريقية جنوب الصحراء الكبرى بثلاث مراحل رئيسية هي:

١– مرحلة الكفاح المسلح

٢– مرحلة النضال الشعبي ضد النظام الاستعماري

٣– مرحلة النضال السياسي

أولاً– مرحلة الكفاح المسلح:

تمتد هذه المرحلة من بداية الغزو الاستعماري الأوربي للقارة حتى قيام الأنظمة الاستعمارية المختلفة. وقد تزعم النضال في هذه المرحلة قيادات إفريقية دولانية وقبلية ودينية، أي الطبقة الحاكمة التي كانت تحكم قبل وصول المستعمر.

وقد اتسمت المقاومة الإفريقية في هذه المرحلة بالطابع القبلي غير المنظم، كان قادتها رؤساء القبائل والزعماء المحليون، وكانت أهدافها محددة في الدفاع عن أرض القبيلة ومصالحها، وغالباً ما كانت على شكل هبات لمقاومة حالة من حالات الاضطهاد والاستغلال، ولم يكن بمقدورها الاستمرار طويلاً بسبب شراسة ووحشية المستعمر في الرد عليها، وتركز النضال في هذه المرحلة في الأرياف. ويمكن تقسيم هذه المرحلة إلى فترتين رئيسيتين

١– الكفاح المسلح من أجل *حماية* الاستقلال والسيادة الوطنية(١٨٨٥–١٩٠٢)

٢– الكفاح المسلح من أجل *استعادة* الاستقلال والسيادة الوطنية(١٩٠٢–١٩١٤)

١– الكفاح المسلح من أجل *حماية* الاستقلال والسيادة الوطنية(١٨٨٥–١٩٠٢):

سنكتفي بهذه المرحلة بدراسة الكفاح المسلح الذي قادته دول إفريقية الغربية ضد الغزاة الفرنسيين والبريطانيين.

خلال هذه المرحلة شهدت إفريقية الغربية لجوء المستعمر الفرنسي والبريطاني إلى استخدام الوسائل الدبلوماسية، أو الغزو العسكري، أو كلا الوسيلتين. وعلى الرغم من تماثل أهداف القادة الأفارقة، وهي الدفاع عن استقلال دولهم وممالكهم، والحفاظ على سيادتها الوطنية، فقد اختلفت الوسائل المستخدمة لتحقيق هذه الأهداف، فوجدوا أمامهم ثلاث خيارات هي : المواجهة، أو

التحالف، أو الإذعان. واستخدم القادة الأفارقة الخيارات الثلاث، واستمدوا نضالهم من تجارب الأفارقة في الحضارة الزنجية الإفريقية.

أ- الغزو والاحتلال الفرنسي وردود الفعل الإفريقية:

منذ عام ١٨٨٠، تبنت فرنسا سياسة احتلال القارة الغربية بأكملها، وربطها مع مراكزها الساحلية. وقد أوكلت تنفيذ هذه المهمة إلى ضباط السلاح البحري الذين كلفوا بإدارة منطقة السنغال منذ عام ١٨٨١. ولهذا السبب لجأ الفرنسيون إلى الوسائل العسكرية أكثر من الدبلوماسية.

وفي الوقت نفسه، فضل معظم القادة الإفريقيين أسلوب المواجهة على الوسائل الأخرى، وكانت المقاومة الإفريقية في مناطق النفوذ الفرنسي أطول أمداً بالمقارنة مع المقاومة في المناطق الأخرى ويعود ذلك لسببين رئيسيين:

- إن استخدام الفرنسيين للحل العسكري أكثر من أية طريقة أخرى، قابلها رد فعل عسكري من الجانب الإفريقي
- إن انتشار الإسلام في هذه المناطق، ورفض المجتمعات الإسلامية للحكم الأوربي، أدى إلى اتجاه هذه المناطق إلى مقارعة الفرنسيين بعزم وصلابة وتصميم.

I- مملكة كايور في السنغال:

خلال حكم الملك **لاتيدور ديوب**(١٨٦١-١٨٨٦)، لجأ إلى أسلوب المواجهة للدفاع عن استقلال مملكته. ولكن تصميمه ورجاله على الموت دفاعاً عن هذه القضية لم يكن كافياً، فقد سقط الملك وولديه وعدد كبير من رجال المملكة شهداء في معركتهم ضد الفرنسيين، بعد أن ألحقوا خسائر فادحة بالجانب الفرنسي، وذلك في ٢٧ تشرين الأول ١٨٨٦، وسقطت المملكة بيد الفرنسيين مما سهل عليهم احتلال باقي مناطق السنغال.

II – إمبراطورية التكرور في منطقة النيجر الأعلى الشمالية:

كان الشيخ أحمدو الذي خلف والده الحاج عمر(مؤسس إمبراطورية التكرور)، مصمماً على الدفاع عن استقلال إمبراطوريته وسيادتها. فلجأ إلى استراتيجية التحالف والمواجهة، ولكنه بخلاف غالبية القادة الأفارقة اعتمد الشيخ أحمدو على سياسة التحالف أكثر من المواجهة لعدة أسباب من أهما أنه كان يحارب على ثلاثة جبهات:

- ضد إخوته الذين كانوا ينازعونه وراثة العرش
- ضد بعض أتباعه من قبائل البمبار والماندنك والفولاني، والذين كانوا يكرهونه بشدة ويرغبون في استعادة استقلالهم
- وضد الفرنسيين الذين كانوا يريدون الاستيلاء على أراضي إمبراطوريته.

لذلك عمل الشيخ أحمدو في البداية على تدعيم عرشه، وتوطيد سلطته، فأقام علاقات طيبة مع الفرنسيين، والتحالف معهم، لحاجته الشديدة للسلاح والذخيرة والموارد المالية التي كان يحصل عليها عن طريق التجارة، ولتأمين هذه التجارة كان لابد من التحاف مع الفرنسيين.

وفي الوقت نفسه، كانت السلطات الفرنسية مشغولة في بسط نفوذها على السنغال، فاحتاجت إلى مهادنة الشيخ أحمدو، والتحالف معه ريثما تقضي على المقاومة الإفريقية في تلك المناطق، فوقعت معه ثلاث معاهدات (١٨٨٧،١٨٨٠،١٨٧٤)، وكانت عازمة بالطبع على عدم احترام تعهداتها، وكانت تنتظر الفرصة المناسبة للانقضاض على إمبراطوريته واحتلالها.

ولم يدرك الشيخ أحمدو ذلك إلا متأخراً وبعد فوات الأوان. فقد نجح الفرنسيون في اقتحام العاصمة **نيورو** في الأول من كانون الثاني عام ١٨٩١. وفقدت إمبراطورية التكرور استقلالها نهائياً.

III- إمبراطورية الماندنك في منطقة النيجر الأعلى الجنوبية:

حتى الثمانينات من القرن التاسع عشر، لم يكن بين الإمبراطورية الماندنكية والأوروبيين إلا القليل من الاتصالات، وشملت التجارة فقط. ولكن بدءاً من العام ١٨٨٢، كان الشعب الماندنكي بقيادة الإمبراطور ساموري توري، والذي كان عليه التصدي للتغلغل الاستعماري الفرنسي في منطقة النيجر الأعلى والأطماع الإمبريالية في إمبراطوريتها. في الفترة ١٨٨٢-١٨٨٦، تبنى الإمبراطور وشعبه سياسية النضال المسلح، تبنى الإمبراطور ساموري توري خلالها إستراتيجية الهجوم تارة والدفاع تارة أخرى.

وعلى إثر الصدامات بين الطرفين، استطاع ساموري توري تقدير مدى تفوق أعدائه الجدد في التجهيز والعتاد الحربي وأساليب القتال وفنونه، ولكي يمنح نفسه الوقت الكافي للتفكير رأى من الحكمة تبني استراتيجية دفاعية ومحاولة سبق العدو وتوسيع بعض الفتوحات الإفريقية وتوطيدها.

وهكذا بدأت مرحلة النضال السياسي والدبلوماسي (ما بين آذار ١٨٨٦ و نيسان ١٨٩١)، وخلال هذه الفترة عقد ساموري ثلاثة معاهدات مع فرنسا، أبدى العاهل الماندنكي فيها تمسكه الشديد بالاستقلال والسيادة. الأمر الذي دفع بالفرنسيين إلى اللجوء إلى الحيلة والخداع. ونتيجة للانتهاكات الفرنسية المتكررة لشروط هذه المعاهدات، أدرك ساموري سوء نيتهم، وأنهم يعملون على احتلال الإمبراطورية. فتحول إلى الصدام المسلح.

حدث الصدام المباشر بين الطرفين ما بين كانون ثاني وآذار ١٨٩٢. وعلى إثر هذا الصدام والذي استمر ما يقارب الثلاثة أشهر، أدرك ساموري عدم نجاعة المقاومة المباشرة، فقرر الهجرة نحو الشرق وبناء إمبراطورية جديدة في شمال ساحل العاج وبلاد الأشانتي ومواصلة النضال ضد الفرنسيين.

وعلى الرغم من نجاح الإمبراطور في تكوين إمبراطورية جديدة، إلا أنه فشل في وقف تقدم الفرنسيين اتجاه هذه الإمبراطورية، وأُجبر على الاستسلام في ٢٩ أيلول ١٨٩٨، ونفي إلى الغابون. وتوفي هناك عام ١٩٠٠.

ب- الغزو والاحتلال البريطاني وردود الفعل الإفريقية:

استخدمت بريطانيا استراتيجيتي الدبلوماسية والمواجهة المسلحة معاً. إذ قام ممثلوها بعقد العديد من المعاهدات مع بعض الدول الإفريقية في الأجزاء الشمالية من سيراليون وساحل الذهب. في حين أنها استخدمت القوة العسكرية مع اتحاد الأشانتي(في ساحل الذهب)، ومع بعض الإمارات الإسلامية في شمال نيجيرية.

أما الدول والممالك والشعوب الإفريقية فقد استخدمت نفس الخيارات المتاحة لباقي الشعوب الإفريقية وهي: المواجهة أو التحالف أو الإذعان المؤقت، أو جميع هذه الخيارات معاً.

I- اتحاد الأشانتي في ساحل الذهب:

اختار اتحاد الأشانتي استراتيجيتي المواجهة العسكرية والدبلوماسية بهدف الدفاع عن استقلاله وسيادته. ولم تشهد أية منطقة أخرى في إفريقية الغربية مواجهة عسكرية بين الإفريقيين والأوربيين أطول أمداً من تلك التي شهدتها ساحل الذهب بين شعب الأشانتي والقوات البريطانية.

بدأت المواجهة العسكرية بين الطرفين في السبعينات من القرن الثامن عشر، وبلغت ذروتها في الصدام العسكري بين الطرفين عام ١٨٢٤، حيث هزم الأشانتي القوات البريطانية وقتلوا قائد الحملة وحاكم ساحل الذهب آنذاك السير **شارل مكارثي**.

وفي الفترة ما بين ١٨٦٩-١٨٧٢، شنَّ الجيش الأشانتي هجوماً على الدول الساحلية والجنوبية واحتلالها. وبالمقابل قامت الإدارة الاستعمارية بتجهيز أهم حملة عسكرية وسلمت قيادتها لأشهر ضباطها في تلك الفترة وهو الجنرال **غاريت ولسيلي**. وبفضل الأسلحة الحديثة التي استخدمها الجيش البريطاني، نجح في إجبار الجيش الأشانتي على الانسحاب من جنوب ساحل الذهب. ثم دخل الجيش البريطاني مدينة **كوماسي**، عاصمة الاتحاد في شباط ١٨٧٤ ودمرها.

وكان لهذه الهزيمة أثرها الشديد على الاتحاد، ومن أهم نتائجها استقلال الدول التابعة للاتحاد وتفسخ الاتحاد نفسه، ولم يتمكن الاتحاد من تجاوز هذه الأزمة إلى عام ١٨٩١، حين نجح ملك الأشانتي في لم شمل الاتحاد مرة أخرى.

وإعادة تشكيل الاتحاد، دفع بريطانيا إلى أن تعرض على ملك الاتحاد تحت حمايتها، يدفعها إلى ذلك تخوفها أن تسبقها ألمانيا أو فرنسا إلى ضم بلاد الأشانتي. ولما رفض الملك الحماية، عرضت عليه الإدارة الاستعمارية البريطانية أن يسمح بإقامة مشرف بريطاني في العاصمة، مقابل دفع رواتب له ولملوك الاتحاد، لكنه رفض هذا العرض أيضاً.

عندئذٍ قررت السلطات الاستعمارية البريطانية اللجوء إلى استخدام القوة. فنظمت حملة عسكرية بقيادة السير فرانسيس سكوت، استطاعت أن تدخل العاصمة كوماسي دون أن تواجه أية مقاومة في كانون الثاني ١٨٩٦، لأن ملك اتحاد الأشانتي ومستشاريه قرروا عدم محاربة البريطانيين، على أمل أن يجدوا في استخدام استراتيجية الدبلوماسية للحفاظ على استقلال بلادهم وسيادتها. ومع ذلك قام البريطانيون باعتقال ملك الاتحاد والملكة والدته وأخيه وبعض قادة جيشه، ونفوهم إلى سيراليون، ثم إلى جزيرة سيشل في عام ١٩٠٠.

II – في نيجيرية:

لقي البريطانيون مقاومة عنيفة في جنوب نيجيرية وشمالها من جانب الكثير من الدول والممالك الإفريقية، وسنكتفي بالمقاومة التي حدثت في الجنوب.

مقاومة جنوب نيجيرية للاحتلال البريطاني

مع قدوم عام ١٨٨٤، كان المستعمرون البريطانيون قد وقعوا معاهدات حماية مع معظم القادة والزعماء الأفارقة في دلتا النيجر، في حين أن بعض ملوك دلتا النيجر سمحوا للمبشرين بممارسة نشاطهم التبشيري في ممالكهم، والبعض الآخر رفض ذلك. إلا إن جميع الملوك في المنطقة أصروا على التمسك بسيادتهم وبحقهم في تنظيم التجارة وجباية المكوس من التجار البريطانيين. وهذا ما لم يقبل به القناصل البريطانيون من أمثال جونستون، وهيويت.

ومن أشهر الملوك الذين وقفوا في وجه القناصل والمبشرين والتجار البريطانيين، كان ***ملك مملكة أوبوبو***. فقد أصر هذا الملك على أن يقوم التجار البريطانيون بتسديد ما يتوجب عليهم من الضرائب، وأمر بوقف التجارة مع الشركات البريطانية إذا لم تدفع هذه الرسوم، وعندما أمره القنصل البريطاني جونستون بالتوقف عن جباية هذه الرسوم والضرائب، أرسل الملك احتجاجاً رسمياً لوزارة الخارجية البريطانية ورفض تنفيذ أوامر القنصل.

وفي عام ١٨٨٧، استخدم القنصل البريطاني الحيلة في استدراج الملك للصعود على ظهر إحدى السفن البريطانية بعد أن أعطاه الأمان، ولكن ما إن صعد الملك حتى أمر القنصل رجاله باعتقاله وإرساله إلى **أكرا** حيث جرت محاكمته وحكم عليه بالنفي إلى جزر الكاريبي.

أدهشت هذه المعاملة قادة وملوك المنطقة، ولما كانوا منقسمين على بعضهم، فقد استسلمت بعض دول الدلتا، ووافقت على اللجان الإدارية التي وضعها جونستون على رأس كل منها.

وفي بلاد اليوروبا في جنوب النيجر، لم يتمكن البريطانيون من توقيع معاهدة سلام في عام ١٨٨٦، مع عبّدان، وتحالف إيكيتا–بارو إلا بعد حروب قاسية دامت نحو سبع سنوات (١٨٧٩–١٨٨٦)ن وكانت دولة إيغبو الدولة الوحيدة في بلاد اليوروبا التي استمرت في مقاومة كل من المبشرين والتجار البريطانيين والإدارة الاستعمارية البريطانية في لاغوس. فجهزت السلطات

الاستعمارية حملة عسكرية عام ١٨٩٠ قوامها ألف رجل مزودين بأحدث الأسلحة النارية للقضاء عليها، وقد نجحت هذه الحملة في قهر جيش إيغبو. عندئذ أدركت معظم دول اليوروبا عدم جدوى المقاومة واضطرت في الفترة ١٨٩٣-١٨٩٩ إلى توقيع معاهدات وافقت بموجبها على وجود مقيمين بريطانيين في بلادها.

ومن جهة أخرى، على الرغم من توقيع مملكة بينين معاهدة حماية مع بريطانية في عام ١٨٩٢، فإنها أصرت بحزم على الاحتفاظ باستقلالها وسيادتها. وهذا ما لم تكن السلطات البريطانية قادرة على تحمله آنذاك، لذلك استغلت حادثة موت القنصل البريطاني العام بالوكالة وخمسة بريطانيين وهم في طريقهم إلى مملكة بينين، لإرسال حملة عسكرية عقابية قوامها ١٥٠٠ رجل نجحت في دخول عاصمة المملكة عام ١٨٩٧، على الرغم من دفاع أهالي المملكة المستميت، وأضرمت النار فيها، بعد أن نهبت ثرواتها الفنية.

٢-الكفاح المسلح من أجل *استعادة* الاستقلال والسيادة الوطنية(١٩٠٢- ١٩١٤):

مع بدايات القرن العشرين، كانت الدول الأوربية التي استعمرت إفريقية قد قضت على جميع أشكال الكفاح التي نظمها قادة الممالك والإمبراطوريات والدول الإفريقية خلال الفترة ١٨٨٠-١٩٠٢، بهدف إنقاذ أوطانهم من الوقوع في براثن المستعمرين الأوربيين والدفاع عن استقلالها وسيادتها. وانتهت هذه الفترة بسقوط قسم كبير من هؤلاء القادة في ساحات القتال، وإجبار من بقي منهم حياً على الاستسلام للغزاة، ونفيهم من بلادهم، ووفاتهم في بلاد المنفى. إلا أن الانتصارات التي حققتها الدول الأوربية الاستعمارية في القارة الإفريقية، لم تنل من عزيمة الشعوب والقبائل الإفريقية وتصميمها على مواصلة النضال ضد المستعمر الأوروبي.

فخلال الفترة ١٩٠٢-١٩١٤، تابعت الدول الأوربية الاستعمارية جهودها في تنظيم الإدارة الاستعمارية، وتعزيزها في مستعمراتها، وفرض النظام الاستعماري على شعوب هذه المستعمرات، لتسهيل مهمتها وتحقيق هدفها الرئيسي المتمثل بنهب خيرات البلاد واستغلال اقتصادها بأشكال مختلفة.

وعلى الرغم من بقاء قيادة الكفاح الإفريقي خلال هذه الفترة بين أيدي قيادات إفريقية تقليدية، فقد أصبح هدف هذا الكفاح هو طرد المستعمر الأوربي من البلدان الإفريقية. وسنكتفي بساحل العاج كمثال على ذلك.

حالة ساحل العاج:

خلال فترة فرض النظام الاستعماري، واجهت الإدارة الاستعمارية الفرنسية في ساحل العاج مقاومة مسلحة شديدة، نظمتها قبائل هذه المستعمرة وكان أشهرها قبائل الباولة، وقبائل الغورو، ومنطقة أعالي ساسندرا في غرب ساحل العاج وجنوبه.

(١)- نضال قبائل الباولة:

يعود كفاح هذه القبائل إلى عام ١٨٩٣، حين بدأ المستعمر الفرنسي بغزو بلاد الباولة، حيث واجه مقاومة عنيفة استدعت منه نقل إدارة هذه البلدان إلى السلطات العسكرية في المستعمرة. إلا أن العمليات العسكرية الفرنسية المتعددة وسقوط بعض قراها المشهورة بمناعتها، والخراب والدمار اللذان لحقا بالقرى الأخرى، لم ينل من عزيمة قبائل الباولة، وتصميمها على الدفاع عن استقلالها وسيادتها. وإن أُجبرت على الاستسلام والخضوع مع نهاية ١٩٠٣، فإن خضوعها لم يكن إلا أمراً مؤقتاً، ولم تؤدِ عودة إقليم الباولة، منذ عام ١٩٠٣، على الإدارة المدنية من جديد إلا إلى هدوء نسبي ومؤقت استمر حتى عام ١٩٠٨.

وحين أدركت هذه القبائل أن رحيل الفرنسيين عن بلادهم في المدى القريب أمراً مستبعداً، فإنها لم تتردد في استئناف النضال المسلح بهدف طردهم من البلاد واستعادة استقلالها وسيادتها.

وفي تموز ١٩٠٩، أصبح من المستحيل على الإدارة الاستعمارية إقامة أي اتصال سلمي معها، فقد قاومت هذه القبائل مقاومة عنيفة جميع محاولات هذه الإدارة للاتصال معها. وبدءاً من عام ١٩٠٩، رفضت هذه القبائل دفع ضريبة الرأس، وتزويد الإدارة الاستعمارية بالحمالين والرجال للقيام بأداء الضرائب العينية. وأخذت بمهاجمة القوافل العسكرية الفرنسية، والبلاد المجاورة التي انضمت للفرنسيين، والتجار (الديولا) الذين عدتهم من المتعاونين مع الإدارة الاستعمارية. وحاصرت المخافر العسكرية والإدارية ودمرتها، وسدت طرق المواصلات.

لكن رد الإدارة الاستعمارية الفرنسية كان سريعاً، فقد كلفت الأرتال العسكرية الفرنسية بمهمة القضاء على ثورة قبائل الباولة المسلحة وإخضاعها. وصدرت الأوامر بالبحث عن ثرواتها وتدمير قراها ومعسكراتها وإتلاف محاصيلها ومؤنها الغذائية بهدف تجويعها.

ويعود الفضل في انتصار الفرنسيين إلى تفوق القوات العسكرية الفرنسية في التجهيزات العسكرية، وفي أساليب القتال وفنونه، ووحشية قمع هذه المقاومة. ولم ترغم قبائل الباولة على التخلي عن الكفاح المسلح إلا بعد سقوط بعض قادتها في ساحات المعارك، واعتقال وسجن آخرين، وفقدان الألوف من أبنائها في ساحات المعارك، وإحراق أغلب قراها أو تدميرها، وما إن تخلت قبائل الباولة عن الكفاح المسلح، حتى تبنت أشكالاً أخرى من النضال ضد النظام الاستعماري واستعادة استقلالها وسيادتها.

(٢)- مقاومة شعوب غرب ساحل العاج وقبائله(١٩٠٨-١٩١٤):

اتخذت المقاومة في هذا الإقليم شكلين أحدهما سلمي، والآخر مسلح. وتجسدت المقاومة السلمية برفض دفع ضريبة الرأس، أو تزويد الإدارة الاستعمارية بالحمالين والرجال لأداء الضرائب العينية، وسد الطرق التي تصل فيما بين المخافر والمراكز الإدارية الفرنسية، وإعاقة الاتصالات مع البلدان المجاورة، وتخريب خطوط التلغراف، أما المقاومة المسلحة فقد تمثلت بالهجوم على المخافر

العسكرية والمراكز الإدارية الفرنسية، والاعتداء على فصائل الاستطلاع وقوافل المؤن وقتل الجنود الفرنسيين، ويشهد على شدت هذه المقاومة وضخامتها ما يلي:

- أهمية أعداد القوات الفرنسية التي كُلفت بالقضاء على هذه المقاومة، واستخدامها سلاح المدفعية.
- طول الفترة الزمنية النسبي للعمليات العسكرية الفرنسية.
- قسوة عمليات قمع هذه المقاومة ووحشيتها.
- إفقار السكان الثائرين بدفع الضرائب المتأخرة والغرامات الحربية.
- سجن معظم العصاة أو نفيهم، وإعدام من قبض عليه مسلحاً
- أهمية أعداد الأفارقة الذين سقطوا في هذه المعارك والذي تجاوز ٤٢٧٧ قتيل في بلاد الغورو في أقل من سنتين، وأعداد الجرحى التي فاقت بكثير أعداد القتلى.

أخيراً، لم تكن المقاومة التي نظمها الأفارقة في المناطق الأخرى أقل حدة من تلك التي شهدتها مناطق ساحل العاج. وإن نجحت الإدارة الاستعمارية في القضاء على هذه المقاومة، فإن الخضوع بالنسبة لهذه الشعوب لم يكن يعني الاستسلام والتخلي عن كل أشكال النضال ضد المستعمر الفرنسي.

ثانياً- مرحلة النضال الشعبي ضد النظام الاستعماري(١٩١٤-١٩٣٩):

يقصد بالنضال الشعبي ضد النظام الاستعماري، رفض الجماهير الإفريقية لجميع نظم الاستغلال والقسوة والإكراه والاضطهاد التي قام عليها هذا النظام ونضالها ضد صاحب هذا النظام من ظلم وجور وقمع ومهانة.

وقد واصلت مختلف المجتمعات الإفريقية خلال هذه المرحلة، نضالها ضد هذه الأنظمة، وما تمثله من استغلال اقتصادي واضطهاد سياسي واجتماعي وثقافي، بهدف حماية ثقافتها الزنجية الإفريقية. وقد تركز النضال في هذه المرحلة بالدرجة الأولى بالأرياف.

وخلال هذه الفترة اعتمد النضال الشعبي على المقاومة السلبية، أي على أشكال متعددة من المقاومة غير المسلحة، مستمدة من الحضارة الزنجية الإفريقية. وسنكتفي بدراسة النضال الشعبي في إفريقية الغربية ضد الاستعمار الفرنسي كنموذج لهذا النضال.

مرَّ النضال الشعبي في الفترة ما بين ١٩١٤-١٩٣٩، بفترتين هما:

- النضال الشعبي ضد المجهود الحربي (١٩١٤-١٩١٩)
- النضال الشعبي ضد نظم الاستغلال والقسر والإكراه والقمع والاضطهاد(١٩٢٠-١٩٣٩)

١- النضال الشعبي ضد المجهود الحربي(١٩١٤-١٩١٩):

لقي نظام الخدمة العسكرية الإلزامية، الذي فرضه الاستعمار الفرنسي منذ عام ١٩١٢، على الشبان الذين تتراوح أعمارهم ما بين ٢٠-٢٨ عاماً من أبناء مستعمراتها الإفريقية، مقاومة وعداء شديدين من الأفارقة، وإبان الحرب العالمية الأولى ومع فرض المجهود الحربي العسكري(والذي يعني تزويد المستعمرات للإدارة الفرنسية كل ما تحتاجه من جنود ومنتجات غذائية وصناعية)، تفاقم عداء الأفارقة ومقاومتهم للتجنيد العسكري الإجباري، ولاسيما بعد لجوء الإدارات الاستعمارية المحلية لاستخدام العنف ووسائل وحشية ومهينة لإجبار الإفريقيين على تزويدها بالأعداد المطلوبة من الرجال، واتخذت مقاومة الأفارقة للمجهود الحربي العسكري شكلين: مقاومة سلبية ومقاومة مسلحة.

- **المقاومة السلبية:**

وقد اتخذت عدة أشكال، من أهمها:

a) تقديم أشخاص غير لائقين صحياً للخدمة العسكرية
b) الهروب الجماعي إلى الأدغال، أو الهجرة الجماعية إلى المستعمرات الأجنبية المجاورة.
c) التشويه الجسدي وإثارة الأمراض الطوعية، وتقوم على استخدام جميع الطرق وابتلاع أي مادة قد تثير الأمراض المختلفة، التي تستدعي إعفاءهم من الخدمة من قبل لجان خاصة.
d) الفرار من الخدمة.
e) بساطة عدد المتطوعين، رغم الجهود التي بذلتها الحكومات الاستعمارية لتشجيع الشباب الأفارقة على الانضمام للجيش.

- **المقاومة المسلحة:**

في بعض المستعمرات مثل الداهومي، وأعالي السنغال-النيجر، تحولت المقاومة السلبية إلى المقاومة المسلحة للمجهود الحربي العسكري.

وقد اتسمت جميع هذه الثورات بكونها ثورات جماهيرية فلاحيه، نظمت حول زعماء إفريقيين تقليديين، سبقتها فترة تحضير، واستدعى قمعها استخدام عدد مهم من القوات الاستعمارية. والسبب المباشر المشترك لاندلاعها كان سأم أبناء هذه المستعمرات وضجرهم من عمليات التجنيد التي نفذت منذ اندلاع الحرب العالمية الأولى.

ومن جهة أخرى، لم يكن هدف هذه الثورات المعلن رفض النظم الاستعمارية القمعية فحسب، بل التخلص من الوجود الاستعماري الفرنسي. وعلى الرغم من فشل هذه الثورات في تحقيق أهدافها فقد استمرت في عدائها للمستعمر وتصميمها على مواصلة النضال ضده.

٢- النضال الشعبي ضد نظم الاستغلال والإكراه والقمع والاضطهاد(١٩٢٠-١٩٣٩):

ظهر هذا النضال في رفض الجماهير الإفريقية ومقاومتها لكل من الخدمة العسكرية الإلزامية، وضريبة الرأس، والعمل القسري بصيغه المختلفة، وقد اتخذ النضال الشعبي ضد هذه النظم صيغة المقاومة السلبية.

أ- مقاومة الخدمة العسكرية الإلزامية:

بموجب قانون ٣٠ تموز ١٩١٩، أصبح على كل مستعمرة فرنسية في إفريقية الغربية أن تقدم سنوياً سوقة عسكرية اختلف أعدادها بحسب المستعمرة، استخدم قسم منها في الجيش، والباقي وضع تحت تصرف السلطات العسكرية لاستخدامه في أعمال مدنية.

وأسباب هذه المقاومة عديدة ومتنوعة، فهي ذات طبيعة:

- نفسية(التهجير من الوطن، العزلة الناجمة عن الاختلاف اللغوي، الخوف من العنف)
- واقتصادية(طول مدة الخدمة العسكرية، وما ينجم عنها من اضطراب في الأنشطة الزراعية)
- ومادية(صعوبة النقل إلى المعسكرات، وسوء التغذية)
- واجتماعية(عدم وجود تقليد لجيش نظامي في كثير من المجتمعات الإفريقية)
- وسياسية(حداثة عهد الاحتلال، والشعور بالعبودية).

واتخذت مقاومة الخدمة العسكرية الإلزامية صيغة المقاومة السلبية مثل هجر القرى واللجوء إلى الأدغال، أو الهجرة إلى المدن، أو الهجرة إلى المستعمرات الإنكليزية المجاورة، ...إلخ.

ب- مقاومة ضريبة الرأس:

دفعت أسباب مالية ونفسية-تربوية الحكومة الاستعمارية الفرنسية إلى فرض ضريبة الرأس في مختلف مستعمراتها في إفريقيا الغربية.

استند قانون ١٣ نيسان ١٩٠٠، إلى مبدأ قيام المستعمرات بتمويل احتياجاتها بنفسها. ولكي تحصل الإدارة الاستعمارية على الأموال اللازمة لتغذية الميزانية المحلية، فرضت ضريبة الرأس في كل مستعمرة، وسرعان ما أصبحت هذه الضريبة تشغل المرتبة الأولى في موارد هذه الميزانيات.

وإن لعب السبب المالي دوراً رئيسياً في فرض هذه الضريبة، فإن أسباباً أخرى كانت وراء فرضها أيضاً هدفها دفع الإفريقيين للعمل والاندماج في نشاطات الأوربيين الاقتصادية، وتوسيع القطاع الاقتصادي النقدي.

وقد رفض الإفريقيون ضريبة الرأس وقاوموها لما صاحبها من مظالم واضطهاد، ولما كانت أعمال العنف الوحشية ترافق جباية هذه الضريبة فقد جعلت فترة جبايتها بالنسبة للإفريقيين فترة

مشحونة بالقلق والتوتر النفسين فالإفريقي الذي لم يتمكن من أداء واجبه الضريبي كان مضطراً للاختباء لكي لا يعرض نفسه للاعتقال في المدن، ومصادرة محصوله وحيواناته.

وتجلت مقاومة الأفارقة لهذه الضريبة باللجوء إلى العنف، والثورات الجماعية، أو توجيه نداءات إلى السلطات العليا في الإدارة الاستعمارية، وإلى لجنة حقوق الإنسان في العاصمة الفرنسية، أو باللجوء إلى المقاومة السلبية من تزييف الإحصاءات، وعدم الخروج من المنازل في أوقات الرقابة، أو الهروب إلى الأدغال عند اقتراب موعد جباية هذه الضرائب.

ج- مقاومة العمل القسري أو نظام العبودية المقنعة:

كان البرتغاليون والإسبان أول من أدخل نظام العمل القسري في مستعمراتهم في أمريكا، أما الفرنسيين فقد أدخلوا هذا النظام إلى مستعمراته الإفريقية لعدة أسباب:

a. عدم كفاية اليد العاملة
b. ضرورة مساعدة فرنسا في إعادة بناء اقتصادها بعد الحرب العالمية الأولى
c. تفضيل المستوطنين الأوروبيين ترك ممارسة الأعمال الشاقة لأبناء المستعمرات
d. نظرة الأوربيين لنظام العمل القسري على أنه دليل تبعية

اتخذ العمل القسري عدة أشكال هي العتالة، الضريبة العينية، إرغام الأفارقة على العمل في المزارع والورشات الأوربية والإفريقية على السواء. وقد رفض الأفارقة نظام العمل القسري لعدة أسباب أهمها:

١) الإرغام على العمل، والقسوة الفائقة في شروطه
٢) المعاملة السيئة التي كان العمال يلقاها في الورشات العامة والخاصة
٣) سوء التغذية، وعدم توفر الشروط الصحية للعمل
٤) ارتفاع نسبة الوفيات في الورش والمزارع
٥) الإرغام على العمل ليلاً نهاراً، وأيام الحر والبرد
٦) عدم احترام الحد الأدنى للأجور أو عدم دفعها إطلاقاً

وتجلى رفض الأفارقة للعمل القسري بأساليب متباينة بدءاً بالتهديد بالثورة، إلى الهجرة من الأرياف إلى المدن، مروراً بالمقاومة السلبية، مثل هجر القرى واللجوء إلى الأدغال. وكانت هذه المقاومة عامة وشملت جميع الشرائح في مختلف المستعمرات الإفريقية.

ونستنتج مما سبق أن النضال الشعبي ضد المستعمر، ظلَّ ناشطاً بين الحربين، وكان أغلب قياداته من عناصر القيادات الإفريقية التقليدية.